إبداعات يمانية
١٨٢

سعيد محمد الحمادي

الأرض والسلاح

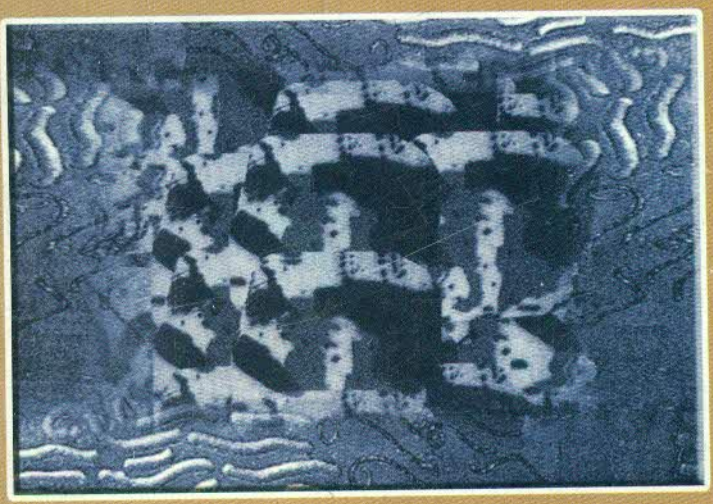

قصص

إبداعات يمنية
١٨٢

الأرض والسلاح

سعيد محمد الحمادي

قصص

بسم الله الرحمن الرحيم

تأسست المكتبة الأم في عدن قبل عام 1890
تأسس المركز في صنعاء عام 1994

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 404 / 2005

الطبعة الأولى 1426هـ الموافق 2005م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي

مركز عبادي للدراسات والنشر

ت: 219618 / فاكس: 219619
ص. ب: 662 صنعاء الجمهورية اليمنية

التنفيذ الطباعي: مركز عبادي للدراسات والنشر

المحتويات

دون رجعة ٧
بوابة الخروج ١٣
البقرة "مهره" ١٨
الحجر ٢٢
يوم جميل ٢٦
العجوز والحافلة ٣١
الكوخ ٣٦
الصلح الأخير ٤١
المندوب ٤٧
الجنازة ٥٢
القراءة ٥٦
أسوار عالية ٦٠
البير ٦٧
المشيمة ٧٣
القضبان ٧٨
القلق ٨٤
الأرض والسلاح ٨٩
الشك ٩٥

دون رجعة

لعل كلاً منا قد سمع عن الحكايات والقصص التي كانت تحدث في العهد البائد.

ومنها حكاية الجدة التي ما تزال عالقة في ذهني.

حيث كان عمري آنذاك أربع عشرة سنة.

قالت الجدة:

في يوم من أيام الصيف، كانت قريتنا طبيعة خلابة.. الجبال، مدرجاتها مكتسية بحلة خضراء، والأشجار باسقة تناطح عنان السماء الصافية.

في عصر ذلك اليوم، كان الظل قد شرع بالعودة، الجو رائعاً، زقزقة العصافير والنسيم العليل يبعثان في النفس ألقاً جميلاً.

الشمس تتحدر في الأفق، منذرة بالمغيب، والسماء ملبدة بالغيوم البيضاء.

في تلك الآونة لاح في الأفق ثلاثة رجال. كانوا القادمين من هناك، يقتربون من مدخل القرية، يحملون فوق أكتافهم بنادق "جرمل"، موشحين بلباس أبيض مريكي.. ويلفون بها أجسادهم حتى نصفهم الأسفل إلى الركبة على أقدامهم أحذية جلدية تكاد تكون عارية.

تعالت أصوات النسوة من فوق أسقف المنازل.

– عمَّن يبحث العسكر؟ !!

تجمَّع الأطفال حول العسكر، والذين يشقون طريقهم وسط القرية.. لم يتجرأ أحد سؤالهم عن وجهتهم.

اقتربوا أكثر.. تكلم أحدهم:

- أين منزل عبده علي؟

أشار الأطفال نحو المنزل.

تقدموا بخطوات توحي بغطرستهم.. وصلوا إلى المنزل. وجدوه مغلقاً.. نادوا:

- (يا عبده علي)

أجابتهم زوجته بأنه غير موجود.. أمسك أحدهم بندقيته ودقَّ الباب بعقب البندقية.. تقدم آخر. كرر نفس العملية.

كان الباب مصنوعاً من الخشب. انفتح من الداخل. مروا على الطابق السفلي.. كانت فيه الأبقار والأغنام، صعدوا إلى الأعلى. أرشدتهم زوجته لغرفة الجلوس.

أحد رجال القرية ينادي: (عبده علي)

لأنه كان في حقله.

أنظار أهالي القرية منصبة على منزله.. كل واحد له تفسير مختلف.. الجميع يتهامسون: ما هو مصير عبده علي؟! أحدهم يقول:

إنهم سيسحبونه ويذهبون به للسجن

وآخر: سينهالون عليه ضرباً.

يأتي مسرعاً يشق تجمعات أهل القرية، وصل منزله مُرحِّباً بالعسكر. أوصى زوجته بذبح ثلاث دجاج ليكرم بها ضيوفه. حينها سمع العسكر كلامه لزوجته، فطلبوا منه ذبح العجل الذي كان مربوطاً في الطابق السفلي من المنزل. يقاطعهم عبده علي بدهشة:

- لا يمكنني ذبحه لأنني أعده ليكون ثوراً أستخدمه في حراثة الأرض.

قال أحدهم:

- هذا ليس من شأننا! نحن نريد لحم عجل !!

يتساءل عبده:

- أنا لا أعلم لماذا جئتم إليَّ؟

مَّد إليه أحدهم ورقة أمر من العامل بالحضور لعدم دفعه زكاة بيت المال..

قال هو:

- ولكني دفعت ويبدو أنه حدث خطأ !!

قال آخر:

- عليك بذبح العجل وتقديمه لنا مع العشاء وبعدها سنذهب إلى العامل.

ازداد غيظ عبده علي وحنقه وهو من الرجال الأشداء في القرية، طويل القامة، عريض المنكبين، ببشرته السمراء الفلاحية، التي تدل على لون الأرض، والكفاح المتواصل ويديه القويتين.

وأردفت الجدة.

قام عبده علي من فوره، أخذ بنادق العسكر المعلقة على جدار الغرفة. ورمى بها إلى الخارج. وثب عليه العساكر الثلاثة. دفعوا به إلى الخلف. ارتطم عرض الجدار، عاد يلهث مندفعاً نحوهم. أمسك بأحدهم ودفعه بقوة خارج الغرفة، طرح الآخر أرضاً، لم يعد قادراً على النهوض. يتعارك مع الثالث.. يمسك كلٌ بالآخر ويتعاركان كثيراً حتى خرجوا من الغرفة.. نزلوا درج المنزل وسط

الظلام، وهم يتعاركون، كل يريد الفتك بالآخر، حتى وصلوا إلى الأسفل. كانت الدماء تسيل من جبينيهما، ووجهاهما، ملطخان بروث البقر والغنم.

سمع أهالي القرية صراخ زوجته، هرعوا إلى المنزل.

مازال الإثنان يقتتلان بشراسة، يحاول أهل القرية إبعادهما عن بعضهما، كان الأمر صعباً. ولكنهم استطاعوا ذلك.. قام العساكر فوراً يبحثون عن بنادقهم. حملوها على أكتافهم مذعورين وذهبوا مع شيخ القرية، وباتوا عنده حتى لاح الصباح..

مازال الذعر في قلوبهم، أخذوا أمتعتهم ورحلوا دون رجعة.

بوابة الخروج

السحب الداكنة تحجب أشعة الشمس المحرقة، والرياح المحملة بالأتربة تخف وطأتها في السماء، لم تعد الشمس تلفح بأشعتها، شرع الظل ينكمش منذراً بقيلولة مشمسة، الناس يتجمعون في أماكن متناثرة. يدبّون كالنمل.

لديهم هدف يسعون إليه. الجلوس للنزهة في مكان يحف بالأشجار، مليء بالحشائش الخضراء

والورود ذات الألوان الجميلة، إذا هبَّ النسيم فاحت منها رائحة عطرة.. ألعاب الأطفال والكبار التي تدار بالكهرباء مستمرة بحركتها الديناميكية.. ملابس متنوعة للرجال، وملابس سوداء للنساء لا يرى منهن سوى عيون براقة عسلية، سوداء، زرقاء.. حراس يقفون ببوابة الخروج، يلبسون قمصان بنية وسراويل سوداء. لا توجد طاقيات على رؤوسهم، ممسكين بأيديهم عَصياً فولاذية سوداء، بعضهم يضعها في جانبه الأيسر مربوطة بمعصمه.

يقترب شاب فارداً رجليه ويديه رافعاً رأسه إلى الأعلى في الثامنة عشرة من عمره، كان يحاول الدخول من بوابة الخروج..

قال له أحد الحراس:

- يا سيدي ممنوع الدخول من بوابة الخروج.

قال الشاب:

- أنا أريد الدخول من هذه البوابة، تقدم إلى الأمام فارداً صدره..

وقف ثلاثة حراس دفعوه إلى الخلف..

ثار الشاب وانتفخت أوداجه، تشنجت أعصاب رقبته، يتحدث إلى الحارس بغضب:

- لماذا تدفعني هكذا؟ !

قال الحارس:

- ألم أقل لك إنه ممنوع الدخول من هنا.

ما يزال الشاب مغتاظاً:

- على الأقل تكلم بأخلاق

قال الحارس:

- قلت لك إذهب وإلا أوسعتك ضرباً.

قال الشاب:

- أتحداك.

اندفع الحارس إلى الأمام، أمسك بالشاب بكتفه، تقدم آخر، هوى بالعصا على ظهره ويديه، تدخل بعض المارة لفك النزاع، لم يستطع الشاب الرد على الحراس لأنهم أطبقوا عليه..

أرادوا سحبه إلى الداخل.

حاول الإفلات من بين أيديهم فلم يستطع، هرع اثنان من أصدقائه، بدأوا يشتبكون مع الحراس، لم يستطع أحد فض الاشتباك، ارتطم أحد أصدقائه بالبوابة، سالت الدماء من رأسه.

تذمرت النساء والأطفال وهم يشاهدون ما يحدث، تجمع عدد كبير منهم. اتكأوا على البوابة.. فتحت: دخلوا إلى الداخل مسرعين خوفاً من حدوث مكروه لهم..

وقع أحد الأطفال أرضاً، داسته الأقدام، انتشلته أمه من بين أقدامهم، وضعته على كتفها وأسرعت به إلى الداخل.

الاشتباك ما زال قائماً.

انتزع الشاب خنجراً من إبطه، راح يهوي به على أحد الحراس، صدها بيده قفز آخر، لكم الشاب في وجهه.

اشتبكوا جميعاً بالأيدي والعصي.. هرعت الشرطة، تدخلت بين المشتبكين، لم تستطع فكهم.. أطلقت أعيرة نارية في الهواء..

ترك المتنازعون بعضهم، اتجهوا ناحية البوابة، دخلوا إلى الداخل، تبعتهم الشرطة وأمسكت بهم وقامت بإجراء التحقيقات.

عاد من جديد الفرح والسرور لكل المتنزهين وظلت البوابة مفتوحة للدخول والخروج.

البقرة ((مهرة))

هكذا يسمونها لوجود بقعة بيضاء في جبهتها.

كانت مهرة من أجمل الأبقار لقوة جسمها وعضلاتها المفتولة وجسمها الممدود وإدرارها للحليب، فهي لم تعرف المرض يوماً.

فقد اعتدت الذهاب كل يوم لمنزل الجيران لأخذ حقين "مُهرة".

كان له لون أبيض ناصع وطعم لذيذ لم يعرف أحد أنه ذاق أطعم من حقينها، وأما الحليب فقد كانت

تدره بغزارة، فقد وضع الله فيها البركة لأن لبنها وسمنها كانا يوزعان لأكثر من منزل.

كانت مهرة مربوطة في زريبة خاصة بها بجانب المنزل، كنا نقترب منها، نمسك بقرنيها فلا تتحرك أو تؤذي أحداً. أما إذا اقترب أحد من ضرعها وحاول الإمساك به لحلبها تعطف رقبتها للخلف لنطحه، وتنفخ بقوة بأنفها..

لم ترضخ يوماً لامرأة أخرى تحلبها غير مربيتها.. كانت إذا غابت عنها مربيتها تظل مطأطئة رأسها، يبدو على وجهها الحزن والكآبة. وفي حالة سماع صوت مربيتها من بعيد، يرتفع خوارها بفرح: هما...هما...

كانت تنجب الأعجال من الذكور والإناث.

كانوا يربون أبناءها ليس للذباحة، وإنما من أجل حراثة الأرض: لضخامة أجسامهم وقوتها.

وفي مساء إحدى الأيام قامت مربيتها بحلبها، وضعت لها العلف، نظفت تحتها.. كان يبدو على

مهرة قشعريرة في جسمها. فكلما اقتربت منها مربيتها وملّست عليها توارت للخلف، وكأن شيئاً مختفياً أمامها. إلا أن هذا لم يتسبب في عدم إدرارها للحليب، فقد كان أكثر من السابق. فقد كانت تعلم أنه آخر يوم تدره، وأنه آخر يوم سيذوق أهالي القرية من حقينها.

حتى العلف لم تأكله "مُهرة". وإنما شربت الماء المخلوط ببعض الأطعمة.

شعرت مربيتها بمدى حزن بقرتها. ربتت عليها، كانت كل واحدة تنظر إلى الأخرى بالحب والإشفاق، وكأن الفراق سيطول بينهما.

أخذت مربيتها اللبن، وصعدت لغرفتها، شرع الليل يسدل ستاره الأسود، كانت مهرة تتصارع مع القدر.. فقد كان رابضاً في مكان ما في عشتها، وما إن رأى اختفاء المرأة حتى تسلل ناحيتها.. شعرت مهرة باقترابه، حاولت الإفلات منه.. كانت زريبتها مغلقة.

حاولت دهسه بأرجلها. تملص منها، التوى برأسه قليلاً إلى الخلف، لدغها في رسغها. وفر هارباً مخلفاً مهرة تصارع الموت..

لم تستطع مقاومة سمه الفتاك. انطرحت أرضاً، وأصبحت جثة هامدة.

وبعد عامين كبرت ابنتها، أسموها مهرة الصغيرة.

الحجر

الساعة الحادية عشرة مساءً. وفي يدي "ريموت"، أقلب به قنوات التلفاز.. كلما ضغطت على رقم ظهرت لي قناة.

كانت جميع القنوات الإخبارية تعرض نفس اللقطات والصور لأطفال يحملون بأيديهم حجارة، ويقذفون بها أقوى آلة في الكون، مدججة بأقوى الأسلحة، مصنوعة من أقوى المعادن.

تُقذف الحجارة عليها لا تتضرر. تتقدم إلى الأمام، وتعود للخلف. تدوس كل من يقف أمامها من أطفال ونساء وشيوخ.

جرافات تهدم الأراضي المزروعة بالأشجار المثمرة والبيوت.

طيور محلقة في السماء، المروحيات تصطاد كل كائن حي يمشي على الأرض.

مناظر بشعة للجرحى والقتلى، وبكاء الأرامل الثكلى.. رجال يُقتادون أمام جنود، وأيديهم مكبلة إلى الخلف، ووجوههم مغطاة بأكياس لها رائحة نتنة.

عرجت الكاميرا إلى مدينة أخرى تقع على ضفتي نهرين.. قذائف وصواريخ تصل لمنازلها، تجعلها خراباً على الأرض فوق أصحابها..

كثيرةٌ هي اللقطات المقززة للنفس، لم أعد أدرك ما يحدث.

أسئلة كثيرة تدور في رأسي: لماذا؟ وكيف؟ وما الحل؟ لم أعد قادراً على النظر إلى هذا..

أضغط على زر "الريموت"، أطفأت التلفاز.

تذكرت بأن موعد وصول الماء قد أتى، وقد سمعت من أحد سكان المنزل بأنه كان الأسبوع الفائت في فناء المنزل. وبينما هو يترقب وصول الماء في ساعة متأخرة من الليل إذا بحجر يقع أمام رأسه، كاد يدميه.. تحينت الفرصة في تلك اللحظة، قلت في نفسي لن يشعر بي أحد وسوف أسبق وصول الماء!

تسللت إلى الخارج، أطفأت مصباح الكهرباء.. كان الظلام مخيماً في الخارج، القمر لم يكن بادياً للعيان، لعله يكون ظاهراً في مكان آخر، النجوم تتلألأ في السماء على مسافة بعيدة.. بدت خطواتي وئيدة، وأخيراً وصلت إلى صنبور الماء.

فتحته.. وما إن بدأ الماء في التدفق حتى وقع حجر على ظهري، ومن هول الفجيعة صحت بأعلى صوتي:

- يا ناس... يا هو... من قذفني بالحجر؟

توقفت عن الصراخ.. رفعت طرفي إلى أعلى، رأيت ابني ذا الأربع سنوات غارقاً في الضحك، وهو ممسكٌ بحجر آخر.

يوم جميل

بعد سكون الليل وهدأته يبدأ ضوء الفجر بإزاحة خيوط الليل، وتبدأ الحياة تدب في أرجاء القرية.. يتجه أغلب الناس كبيرهم مع صغيرهم وهو اليوم المحدد للتسوق نظراً لبعد المدن الكبيرة عن القرى. أغلب المتسوقين يركبون الحمير، آخرون يركبون السيارات.

ما إن تبدأ الشمس بإرسال أشعتها حتى يكون قد امتلأ بالناس فهو يقع في مكان فسيح، يتسع لأكبر عدد منهم. وما إن تقترب منه حتى ترى أنك آخرهم، وأن الوقت قد فات لتتدارك ما تحتاج إليه.

تصل إلى داخله تجد كل شيء متوفراً. فهو منظم من تلقاء نفسه، مكان مخصص لبيع الحيوانات من الأبقار، والأغنام. وفيه بضعة دكاكين صغيرة مبنية بالأحجار الخفيفة. ومسقوفة بسعف النخيل اليابسة..

يبدأ المرء بالتجول، يجد بائعي الخضروات والفواكه، في مكان مخصص لهم، وكذلك بائعي الحبوب المختلفة.

تضطرب في أرجاء السوق حركة غير عادية.. ترتفع سواعد وأصوات، تزوق الواجهات والأبواب بضاعة قديمة، تتعالى النداءات برخص ثمنها.. سلع جديدة تأتي كل أسبوع.

أبقار وأغنام ترتفع أصواتها ((ماء.... ماء..)) تجيبها من الطرف الآخر أصوات الحمير معلنة بحركة ورواج السوق، وأنه وصل إلى ذروته من الزحام..

كلٌ يروج لبضاعته التي جلبها من قريته أو من المدينة.

في نظام السوق يتم حل النزاعات إن حدثت بوجود شيخ يسمى (عاقل السوق) وهو أحد الأعيان وشيخ المنطقة، يتمتع بشخصية قوية وبصيرة نافذة، طويل القامة، عريض المنكبين، في عيونه حمرة. إذا غضب ازداد احمراراً. يلف خصره حزام جنبية. يضع فوق كتفه مشدة زاهية الألوان. له مكان مخصص في السوق. تأتيه رعيته للتشاكي عنده. يتقدم أحدهم.

- يا شيخ: فلان قام بقلع شجرتي، وهي في أرضي.

يأتيه آخر.

- أغنام جاري فلان أكلت زرعي.

يشير إليهم الشيخ بالجلوس والهدوء.. يبدأ بسماع شكواهم واحداً تلو الآخر.. يأمر حارسه الشخصي بإحضار الطرف الآخر للمثول أمامه وسماع دفاعه.

يمتلك الشيخ حدساً قوياً ورؤية ثاقبة في حل مشكلات الناس. بعد أن يسمع حديث جميع الأطراف يستطيع معرفة الشخص المخطئ من المصيب.وإذا حدث وأن رفض أي شخص الامتثال لحلوله يأمر بحبسه، حتى يتم إعادة الحق لأصحابه. وإذا كانت المشكلة مستعصية تؤجل حتى يفرغ الناس من التسوق..

أصبح الناس على ثقة بأنه قادر على صنع المعجزات لهم.. وما تحدث من مشكلات لديهم تصل للشيخ.

الشمس في كبد السماء تلفح رؤوس المارة. الكل منشغل في السوق.. ناس قادمون، وناس

خارجون منه.. أبواق السيارات ترتفع منذرة بتحركها لمن أراد العودة معها.. الحمير تبدأ بدك الأرض بحوافرها منذرة بالعودة، ترتفع أصواتها بالنهيق ليعلم أصحابها أنها لم تعد قادرة على الجلوس تحت لفح الشمس المحرقة.

أصبح المكان شبه خالٍ.

يلقي الشيخ نظرة إليه.. يقوم من مجلسه يتفقد من تبقى من الناس.. يتوجه لمنزله بعد قضاء يوم جميل بحل الخلافات بين الناس والتمتع برؤية السوق.

العجوز والحافلة

شرع الظل بإزاحته للشمس، منذراً بقيلولة هادئة تضفي الفرح..

الحياة تدب في الناس، وأبواق السيارات ترتفع لشدة الزحام.. الناس يتذمرون انتظاراً لحافلة تقلهم إلى محطاتهم..

فجأة يتعالى صوت جابي الحافلة للركاب بالصعود، يخبر السائق بالتوقف. الحافلة التي تتسع

لخمسة وعشرين راكباً، قد امتلأت.. من بين الزحام تلوح امرأة للسائق بالتوقف، عليها ذلك الرداء الأسود، ملفعة به من رأسها حتى أخمص قدميها، مغطية وجهها بلثمة سوداء لا يرى منها سوى عينيها السوداوين.. يتوقف الباص، صعدت المرأة، ينهض أحد الركاب من مكانه ليترك لها مكاناً.. جلست هي على الكرسي وكان الكرسي يتسع لراكبين إلا أنه ظل واقفاً، لم يقعد بجانبها.

الحافلة ما زالت تشق طريقها وسط الزحام.

تتوقف فجأة..كان هناك رجلٌ مُسنٌّ ينتظرها، تساعده عصاه على الصعود،لم يكن هناك مقعد فارغ سوى ذلك الذي بجانب المرأة.. جلس بجانبها، تململت المرأة قليلاً، لملمت ساقيها واتكأتهما تجاه النافذة.

أخذ المسن راحته بالجلوس.. قالت له المرأة بنوع من التأفف:

- لو سمحت ابتعد قليلاً.

قال:

- هذه الدنيا ما عادت تغريني ولا أريد منها شيئاً، عمري سبعين سنة، قبل خمسين سنة كنا نذهب مع النساء نحمل الحطب من فوق الجبال ونعود سوياً لديارنا. كنا لا نفكر تفكير هذه الأيام، كان تفكيرنا بس في الزواج. لكن هذه الأيام لا أعرف كيف اختلف الزمن؟ ولا أعرف لماذا أصبح الرجال والنساء يفكرون هكذا؟ علمتنا الحياة المعاشرة الحسنة مع النساء والاحترام المتبادل.. أصبحت محتاراً كيف أسير في طريقي، وكيف أتحدث إلى الناس؟ وابن آدم يمر عمره بدون فائدة.. الشباب والشابات "سارحين مروحين"، لا يدرون ماذا يعملون؟

يتحدث أحد الركاب مقاطعاً الشيخ:

- "يا حاج هذي مرة قم من جانبها"!

يجيبه الشيخ مستنكراً:

- هيا اسمعوا هذا الخبر !

الجابي متحدثاً بنـــزق:

- "ألا يا الله نحنا والشيبات"، يا حاج ادفع الحساب.

كان الجميع قد دفعوا حسابهم ولم يبـــقَ غيـــر الشيخ العجوز.

يجيبه العجوز:

- "أنت عادك تدور بيَسْ من الركاب والناس قـــد طلعوا الفضاء. أنا ما شدفعش حسابي إلا بعـــد ما أنزل".

الجابي ما يزال يلح بطلبه:

- يا حاج ادفع الحساب بلا كثرة كلام.

يجيبه العجوز:

- أسكت وإلا أعطيتك بهذه العصا.

كانت العصا بيده معقوفـــة الـــرأس.. ضـــحك الركاب وهم مصغون للحوار، كان العجوز يلـــبس عمامة وتحت العمامة كوفية، ويلبس معطفـــاً فـــي نصفه الأعلى وثوباً أبيض حتى أسفل ركبتيه، يزين

خصره بحزام. متوسط القامة، بجسم ممتلئ ووجـــه أسمر مليء بتجاعيد الشيب.

أوقف السائق الحافلة جانباً.. صـــعدت فتـــاة.. جلست بالكرسي المجاور لكرسي العجوز.. نظـــر إليها بإشفاق، وقال:

- الله يحفظكن يا بناتي، ويعطيكن على قدر النية.

نظرت إليه الفتاة ولم تنبس ببنت شفة.

محطة الوصول اقتربت.. الجابي بانفعال:

- يا حاج ادفع الحساب، باقي أنت أتعبتنا معـــك، هيا حاسب..

أدخل الشيخ يديه في جيبـــي قميصه، وأخرجهما فارغتين.. تحسس بقية جيوبه الداخلية.. لا فائدة.

بينما الجابي كان منتصباً أمام رأس العجـــوز. وقد توقفت الحافلة، نزل أغلب ركابها.. قام الـــشيخ من مكانه متكئاً على عصا.. نـــزل مـــن الحافلـــة ومضى لحال سبيله.. والجابي يرمقه بذهول منتظراً النقود....

الكـــوخ

تدب الحركة الصباحية في أرجاء القرية، تبـــدأ الشمس بتبديد شفق الصبح، تبشر الناس بقدوم يـــوم جميل.

بينما هو تخرج به خطواته تجاه الوادي، يصل يتمدد بين الحشائش، تحيط به أشجار النخيل بسعفها الخضر، وهي تحمل أعـــذاقها المحملـــة بـــالتمر، وأشجار المانجو المـــدلاة بفاكهتهـــا علـــى الأوراق الخضراء الداكنة.. يسمع خرير الماء في الـــساقية

الواقعة بالمنتصف، نقيق الـــضفادع مـــن الجهـــة المقابلة، وزقزقة الطيور..

لم يمل من الذهاب للوادي في يوم من الأيام.

عمره فوق الستين عامـــاً، وشـــعره الناصـــع البياض، عيناه تبدو بيضاء لبياض شـــعر رأســـه، ولكنها حادة البصر.. قامته المتوسطة، وجسمه الذي تخطى الستين، لم يعرف أنه أصيب يوماً بمرض أو ذهب لطبيب، لأنه اعتاد في أكله الخبز اليابس مـــع لبن البقر والغنم أو تناول الفواكـــه الطازجـــة مـــن الوادي الذي يعيش فيه يومياً.

أصبح كل من في الوادي يأنسه، حتى الحشرات والثعابين تمر أمامه غير مكترثة بـــه أو خائفـــة.. كذلك هو، كل يمشي في حـــال ســـبيله دون إيـــذاء الآخر لأن الثقة أصبحت متبادلة، تحـــط الطيـــور والعصافير فوق الأشجار، التي يجلس بجانبها فهي مؤمنة بأنه لن يؤذيها.

أهل القرية يذهبون للوادي لأخذ متطلباتهم، فهم على علم بأنه يكون متواجداً. يشعرون بالأمان ولن يتعرضوا لأي مكروه..

زوجته تأتيه بالطعام، فهو يتناول وجبتين في اليوم من الخبز اليابس مع اللبن الطازج.

عندما يشعر بالخطر أو اشتداد البرد والرياح يلجأ لكوخه المبني من صفائح الزنج ويفترش حصيرة، ومتكئاً من الحجر.

أخذ يتحسر على شبابه وما فعلت به السنوات، أخذ به الخيال، قال:

- عندما كنت شاباً لم أفارق هذا المكان ليلاً أو نهاراً.. كنت أتسلق أشجار النخيل وأقطف منها الثمار، أتسلق أشجار المانجو والزيتون بخفة ونشاط، كان الناس يعتمدون عليَّ في قطف ثمارهم، وكذلك أقطف ما أمتلكه بنفسي، لم يصبني التعب أو الملل. كنت عندما أسمع صوت وحش قادم تجاه الوادي أقف له

بالمرصاد. وفي يوم هاجمني ذئب محاولاً افتراسي.. كانت أكوام الحجارة متراصة ومبعثرة أمامي، كنت ألتقطها من الأرض وأرميها عليه واحدة تلو الأخرى، وبخفة وشجاعة حتى أدميته، شعر بالخطر ودنو أجله، فر من أمامي.. أما اليوم فأنا أقعد بين الأشجار، أتأملها وأسقيها، وأزرع الأشجار الصغيرة، وعندما أشعر بالخطر ألتجئ لكوخي هذا. لم أعد أنام بكثرة في الوادي، فقد نمت بالأمس هنا.. كانت الرياح هوجاء لها صوت هيجان الجمال، تقلع أغصان الأشجار. التجأت لكوخي للنوم والاسترخاء، تلحفت حصيرتي، حيث بدأ النعاس يغلبني. وفجأة ظهروا من بين الأشجار، كانوا طويلي القامة، وعريضي المناكب، على رؤوسهم قرون وشعر كثيف يتسلسل إلى خصورهم، أظافر أيديهم طويلة وكذلك أرجلهم، عيونهم حمراء براقة يقدح منها الشرر، يلوح من جباههم، كانوا يحملون

بأيديهم عصياً لها رؤوس مدببة نارية. رمقتهم من ثقب الباب، وبلمح البصر رأوني، طاروا إلى الأعلى، متجهين نحوي، تنحيت عنهم، وقعوا في أرضية الكوخ وأحدثوا صفيرا مدوياً، غاروا في باطن الأرض بعصيهم النارية، ولكني لن أخافهم، سوف أبقى في هذا الوادي إما أنا وإما... هم...

الصلح الأخير

سواد الليل وسكونه واختراق ضوء النجوم لعتمته، بتلاقيها مع أضواء قناديل الكهرباء.

هجع الناس في منازلهم.. الساعة متأخرة، سيارات عابرة في الشارع بسرعة فائقة. بينما هم وكالعادة في صياح وزعيق. أصواتهم ترتفع للبيوت المجاورة، في تلك الليلة يشتد التوتر بينهما.

قالت له بشدة:

- أنت مهملني وأولادي، لم نعرف يوماً أنْ ذهبنا للحديقة، حتى ملابسي وملابس أطفالي تختارها أنت، لم تأخذ رأيي يوماً عند شرائها، تظن أن الذوق ذوقك، وأني غير قادرة على اختيار الألوان والملابس المناسبة.

قال:

- أنا في شغل دائم، وعندما تسنح لي الفرصة المناسبة أذهب إلى السوق وأشتري الملابس.

قالت:

- خذ إجازة من عملك! حاول أن تتفرغ لنا يوماً واحداً في الأسبوع، كما تتفرغ لأصدقائك.

قال:

- وما شأنك بأصدقائي.

قالت:

- لنا حق عليك كما لأصدقائك. تركت أسرتي وتزوجتك، حتى مجوهراتي بعتها بحجة أنك

محتاج، ولم أعارضك. أعمال البيت فوق رأسي: طبخ، تنظيف، تربية أولاد، زوج لا يكاد يجلس في البيت، أريد أن أشعر أني زوجة..

قال:

- ألست أتعب أيضاً في الليل والنهار، من أجل توفير لقمة العيش لكم.. وأما بيع المجوهرات سوف أشتري لك بدلاً منها، لكن ألم أبعها من أجل شراء أثاث للمنزل؟.!

قالت:

- ما اشتريته من أثاث لم يكن بقيمة الذهب كاملة.

قال:

- هل تتهميني بالخيانة، وأني غير أمين. أنت امرأة عديمة الفائدة، ولا تقدرين ظروف الزوج واحترامه..

قالت:

- وأنت رجل متهور لا تضع قدراً للآخرين..

قال:

- أغربي عن وجهي يا عديمة الذوق.

قالت له بغضب:

- تحدث معي بأدب ولطف

قال:

- أتعلميني الأدب.

دفعها إلى الخلف.. ارتطمت بجدار الغرفة.. تقدمت نحوه، ألقته أرضاً.. قام من فوره وهوى بيده على خدها. أمسكت بخدها وذرفت الدموع.. توجه نحو الباب وهو يشتاط غضباً.. صرع الباب وراءه ومضى.. تشبث بها أطفالها وهم يصرخون.. دموعها ما تزال تنهمر.. قامت من فورها واتجهت إلى غرفة نومها.. لملمت ثيابها في حقيبة وخرجت مع أولادها تاركة له المنزل.

برد الشتاء القارس يخترق ملابسها.. يكاد يصل إلى العظام.. الشوارع تكاد تخلو من المارة، كل شيء يبدو ساكناً.. سبل المواصلات تقطعت بها في تلك الساعة المتأخرة.

اقتادت أطفالها، وهي ممسكة حقيبتها لا تعلم إلى أين تتجه؟

ظلت تمشي بخطوات وئيدة، شاردة الذهن، منهكة القوى.. أقدامها لم تعد قادرة على حملها.. أطفالها أنهكهم التعب.

اتكأت على جدار قريب منها.. مدت يديها، أمسكت لحمتي ساقيها المنهكتين.. تنهدت طويلاً.. نظرت إلى أطفالها الذين حتى هذه اللحظة لا يعون ما الذي حدث، وإلى أين هم متجهون؟

سألت نفسها:

إلى أين سأتجه في هذه الساعة؟ خالي يسكن في حي بعيد ووالدي في القرية.. ماذا أفعل.. ما الذي حدث لي؟ كيف تركت منزلي دون إغلاق أبوابه؟

تراجعت إلى الخلف: أمسكت حقيبتها بيد، واليد الأخرى تقتاد بها أطفالها. وصلت المنزل، الأبواب ما تزال مفتوحة.. ذهبت إلى الداخل.. طرحت ثيابها جانباً.. شخصت ببصرها إلى أرجاء الغرفة، نظرت إلى صورتها في المرآة. أصبحت ذابلة لكثرة المشاكل مع زوجها.

فكرت في الصلح الأخير مع زوجها.. التفتت لسريرها، وجدته مريحاً! ألقت بجسدها المنهك عليه مع أطفالها. وراحوا يغطون في نوم عميق...

المندوب

لاح الشفق مبعداً سكون الليل وعتمته، ومبشراً بصباح يمسح بنوره ظلام البيوت الآمنة صانعاً صباحاً أكثر توهجاً.

العصافير تزقزق فوق الأشجار فرحة بقدوم ضوء الصباح، تبعث للبيوت أصواتاً موسيقية جميلة.

الحركة الصباحية تدب في أرجاء القرية.. صيحات الأطفال تصعد بالفرح والسرور.. أبواق السيارات يسمع صفيرها، مكبرات الصوت فوقها، تنذر بأن هذا اليوم هو يوم الاقتراع وأن من بلغ السن القانونية، من الجنسين عليه التوجه للمركز الانتخابي للإدلاء بصوته.

الشمس ترسل أشعتها الذهبية على أرجاء القرية.. الناس يتجمعون حول مكان الاقتراع.

امتلأ المكان بالضجيج، تزاحمت الجموع في طوابير، وفي أماكن متفرقة.. الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً.. فتحت سجلات الناخبين.. يدخل الناخبون الواحد تلو الآخر.. مضى من الوقت ساعة ونصف.

كانت الأمور تسير في بدايتها على خير ما يرام.. فجأة علا الصياح من إحدى الفرق.. قال أحد مندوبي المرشحين لمندوب آخر:

- أنت رجل مغالط كيف هذا الرجل الأمي

يخبرك أنه يريد ترشيح شخص، وأنت تختار له مرشحاً آخر.

أجاب:

- لقد اختاره بنفسه

- لا.. الرجل أمي لا يعلم لمن وضعت الإشارة.

اشتبك المندوبان.. كل واحد يتهم الآخر بالمغالطة..

وقف رئيس اللجنة، أنذرهم مدى خطورة هذه الفوضى.. وأن أي تجاوز من مندوبي المرشحين يعد مخالفة يعاقب عليها القانون.

كثرت الاتهامات فيما بينهم، لم يعر أحد اهتماماً للمسؤول.. سمع الناس في الخارج صياحهم.. خرج أحدهم إلى الخارج، يزعق بأعلى صوته:

- هذه مغالطة نحن لا نقبل بها.

تجمع الناس حوله مع بعض مؤيديه.. تنحوا جانباً مهددين بإيقاف عملية الاقتراع أو تكون النتيجة لصالح مرشحهم.

وقف لهم من الجهة الأخرى مؤيدو بقية المرشحين، مصممين على استمرار عملية الاقتراع.

تشاتم اثنان من الطرف الآخر، اشتبكوا بالأيدي، (اختلط الحابل بالنابل)، علت من الجهة المقابلة أصوات بعض النساء.. كل واحدة تتهم الأخرى بالغش وأنها تستغل أصوات الأميات لصالحها.

تشاغل الرجال بصياح النساء، وتشاغلت النساء بمهاترات الرجال.. لم يعد أحد قادراً على حزم زمام الأمور..

بدأت اللجنة الأمنية بالتدخل، طلبت تعزيزات، تواصلوا مع المرشحين ومع العقلاء. بدأ الناس يهدأون، وأن المسألة لا تستدعي القيام بهذه المهاترات، فالصندوق هو الحكم بين المرشحين.

وفي النهاية سيصعد مرشح واحد وسيكون هو المستفيد..

هدأت الجموع، عرفوا مدى الخطأ الذي كادوا أنْ يرتكبوه، في حق أنفسهم، وفي حق القانون، اجتمع رئيس اللجنة مع المندوبين، وأفهمهم كيف تسير الأمور.

اقتنع الجميع برأيه..

الجنـــازة

مرت الأيام والسنوات وهو مثابر على العمـــل في معرض الملابس كأجير.

يتناول فطوره ويبدأ بفتح الدكان. يمـــضي بـــه الوقت وهو منتصب يستقبل الزبائن، ويبيـــع لهـــم الملابس..

هكذا يقضي يومه حتى يأتي المـــساء، تكـــون حركة الناس قد هدأت لم يعد أحد يشتري شيئاً. يقفل المحل، يعود لمنـــزله حيث يكون أبناؤه وزوجتـــه في استقباله.

أغلب الناس يكنون له الاحترام والمـــودة، فقـــد اكتسب بخبرته في العمل زبائن كثيرين للمحل.

استمراره في العمل ليلاً ونهاراً أنهكه، اشتد به المرض، لم يعد قادراً على فتح الدكان. زادت وطأة مرضه. استغنى عنه صاحب المعرض لأن المالك يعاني من ارتفاع الإيجار للدكان، وقلة الناس فـــي الشراءْ لارتفاع الأسعار.. كثرت الديون عليه، مالك المنـــزل يطالبـــه بالإيجـــار، أولاده بحاجـــة إلـــى مصاريف وملابس ومأكولات، مرضه بحاجة إلـــى علاج.. ارتفع السكر وضغط الـــدم لديـــه، ازدادت همومه، استجمع قواه ونهض.. أخذ يتحـــرك فـــي الغرفة، لم يعد قـــادراً علـــى الاســـتمرار، أمـــسك بالباب.. طأطأ رأسه إلى الأسفل يده اليمنى ممسكة بالباب بقوة، لم يعد قادراً على الرؤية جيـــداً.. لـــم يستطع الوقوف أكثر، ترنح، تشبث بالبـــاب أكثـــر، خارت قواه، سقط على ركبتيه، خرَّ مغشياً عليه.

قامت زوجته من مجلسها، هرعت إليه. أمسكت بكتفيه، أسندته إلى حجرها، تناديه لكن دون جدوى. طلبت من ابنتها إحضار كوب ماء، رشته في وجهه.. لا فائدة. تحسست نبضات قلبه، أدركت أنه فارق الحياة، أجهشت بالبكاء.

السماء صافية، والشمس تتحدر في الأفق منذرة بالوداع، تشبث الأولاد بأمهم، اتكأوا عليها وهم ينظرون إلى أبيهم المسجي بين يدي زوجته.. الأم ما زالت لا تعي ما حدث.. تصرخ.. أدرك الابن الأكبر أن والده فارق الحياة.. آخرون يبكون من بكاء أمهم دون أن يعوا ما جرى لأبيهم.

خيم الحزن على أجواء المنزل.. أصوات البكاء تنتقل للمنازل المجاورة.. هرع أصحابها للمنزل.. كان الجو ينذر بالحزن والكآبة.. أمسك أحدهم بالميت ووضعه فوق الفراش.. اقتاد الأطفال الصغار للخارج، كانوا لا يريدون الابتعاد عن أمهم.. أخبار الموت تنتشر بين الجيران والأهل.

تجمع الناس حول المنزل.. دخلت النساء إلى الداخل لمواساة المرأة والأطفال.. ثلاثة من الصبية ذهبوا لإحضار الجنازة.. الماء يغلي فوق النار من أجل غسل الميت. انتهوا من غسله، كفنوه ووضعوه في الجنازة.. حملوه للمسجد ليصلوا عليه.

بعد صلاة المغرب، شرعوا بحمله، فجأة صاح أحدهم:

- يا ناس الميت عليه ديون. ومن أراد الأجر في الدنيا والآخرة عليه مسامحة الميت قبل دفنه.

قال صاحب المنزل:

- أنا أسامحه بإيجار شهرين.

قال آخر:

- استلف مني خمسة آلاف ريال قبل مدة وقد سامحته.

تحمس من حضر. ومن له دين عند الميت سامحه.

حملت الجنازة على الأكتاف، وذهبوا به إلى المقبرة.

القـــراءة

كعادته يصحو في السابعة صباحاً، يغسل وجهه ويتناول طعام الإفطار، يتوجه فوراً لعمله.

تكون الساعة الثامنة حيث يضع كرته في ساعة الدوام، ويتجه لمكتبه يبدأ بفتح السجلات، يقيد الأعمال اليومية.

بجد ومثابرة ينجز عمله، يغلق سجلات العمل، ويبدأ بتقليب الصحف اليومية، فهي بالنسبة له الغذاء

الحقيقي لعقله، وهو شغوف بمتابعة الأخبار السياسية والثقافية والرياضية.

فجأة.. مسؤوله المباشر يقتحم مكتبه.

- أما زلت تقلب صفحات الجرائد والمجلات وتترك عملك؟

يجيبه بكل أدب واحترام:

- ولكن يا سيدي أنا قد أنجزت عملي على أكمل وجه، وهذه سجلات عملي..

يمسك أحد السجلات، يقلبها أمام مسؤوله ليثبت له بأن عمله مكتمل. يلملم مسؤوله شفتيه، ينظر إليه بإعجاب، ويذهب لحال سبيله..

يعود لتقليب صفحات الجرائد.. يأتيه أحد زملائه وهو منهمك، فيقول له:

- ألا تمل من هذه القراءة كل يوم. كتب، صحف، مجلات؟!

يجيبه بهدوء:

- القراءة مفيدة لعقل الإنسان، من حيث الثقافة، والاطلاع لما يدور في العالم.. القراءة تعلم الإنسان حسن التصرف مع الآخرين بكل ذوق واحترام، وبدونها لا تتقدم الشعوب، وثقافة الأمم بما تنتجه من ثقافة..

يقاطعه صديقه:

- كفى كفى تفلسفاً عد لقراءتك. ولكني أخاف من أن ((يقرح عليك الفيوز)).

يجيبه:

- القراءة عمرها ما تضر العقل. بل تطوره!

اتجه زميله لمكتبه لينجز عمله. عاد يطالع صحفه بشغف، وفي أثناء تصفحه خطرت له فكرة! لماذا لا يذهب لمكتبة الكلية؟ فهناك سينال قسطاً من الراحة في القراءة.

قام من فوره، خرج من مكتبه، اتجه يخطر مسؤوله المباشر، أخذ منه إذناً بالخروج بقية اليوم. مشى بخطوات سريعة، دلف المكتبة. ينظر إلى

الرفوف، أخذ كتاباً، أزاح الكرسي بكل هدوء، جلس عليه. وبدأ بتصفح أوراق الكتاب.

ارتفعت أصوات داخل المكتبة من هنا ومن هناك (كدوي النحل)، كان كلما قرأ ارتفعت الأصوات. هو يحب الهدوء أثناء القراءة، الطلاب قد اعتادوا على الضوضاء، لم يعد قادراً على تصفح الكتاب. وضع الكتاب جانباً. نفخ بفمه. بدأ يدق على الطاولة بكل هدوء، لم يسمع أحد رفع صوته قليلاً.

- يا زملاء إذا سمحتم أخفضوا أصواتكم.

هدأ الذين بجانبه قليلاً.. بينما علت أصوات من الطرف الآخر، عادت الأصوات من جديد. أدرك أنه لا فائدة من القراءة في المكتبة. أزاح كرسيه قليلاً، أعاد الكتاب لمكانه وخرج من المكتبة.

أخذ يخطو في الشارع. كتبه ومجلاته في يده، باحثاً عن مكان هادئ للقراءة.

أسوار عالية

سكون الليل وعتمته رسما خطوطهما الباهتة على جبين الدنيا المنسية.

السماء تعني له الوحدة بعينها، أفكار مشتتة، لم يتفق مع أي منها، لم تخرجه إلى بر الأمان.. قدماه تقودانه ذهاباً وإياباً، في الطارود واضعاً يديه إلى الخلف مُطأطئاً رأسه، أولاده نائمون، فوق فرش بالية، وملايات معفرة، يحلمون بالمدرسة وما يدور فيها.

أمهم بجانبهم ترثي لحالهم. وتفكيرها حول ماذا سيأكلون في الغد؟ وكيف ستدبر مصاريف المنزل، والزوج بدون عمل.

أقدامه تكاد تتفطر لكثرة المشي في طارود المنزل. الناس نائمون في بيوتهم. هذه الساعة المتأخرة من الليل، وهو ما يزال يطوي ذلك الطارود بحركته شارد اللب.

ذهب إلى فراشه محاولاً النوم، فرك عينيه، حرك جسمه يمنة ويسرة، "تقطقطت" عظام ظهره، مد ذراعيه إلى الأمام طقطقت الأفكار والهواجس لديه. سأل نفسه.

من أين آتي بمصاريف المدرسة للأولاد؟

البيت بحاجة إلى خضروات وفواكه حتى الحبّ والسكر والأرز لم يعد كافياً.

أخرج رأسه من النافذة المطلة على المنزل المجاور ذي الأسوار العالية، قال لنفسه:

ماذا لو استلفت من جارنا ما يسد مصروفات الغد ريثما يتدبر لي عمل أو أستطيع بيع ما بداخل العربية من سجائر وشوكلاته.. أما جاري فهو يمتلك عقارات وأموالاً كثيرة.

تعترضه فكرة أخرى:

وما الذي سيوصلك إليه؟ إنك بحاجة إلى مئات الأميال للوصول إنه محاط بأسوار عالية وحراسة وإن وصلت إليه لن يلتفت إليك. فهو لا يعلم أنك تعاني العوز، وإن عَلِمَ فلن يهتم لأمرك.

بدأ النعاس يغلبه. جفونه لم تعد قادرة على الصمود.. يتثاءب بين لحظة وأخرى. تقدم خطوات داخل غرفته، أسند ظهره لفراشه، وضع رأسه على المخدة ونام..

ضوء الفجر يبدد سكون الليل، والحياة تدب داخل المنزل وخارجه.. قدمت زوجته أرغفة الخبز بعد أن تبقى قليل من دقيق اليوم السابق..

الأولاد لا يريدون تناول أرغفة الطعام لأنهم قد سئموا تكرارها كل يوم.. أجبرتهم أمهم على تناوله، وأن لا جدوى حتى من مطالبتهم بنقود للمدرسة، وكانوا على اقتناع بأن منزلهم يخلو منها.

توجهت الزوجة لإيقاظ زوجها للخروج للبحث عن مصدر رزق. استيقظ، توجه لغسل وجهه، تناول قطعة خبز مع كوب الشاي. وضع مشدته فوق ظهره وخرج لفناء منزله. أمسك بعربيته ذات الثلاث عجلات، ذلك الدكان المتنقل الذي يحوي داخله بعض الحلوى والشوكولاته والسجائر.. دفعها أمامه، اتجه ناحية السوق، تنحى جانباً في زاوية منه، وشرع بالبيع.

فجأة يأتيه أحدهم يشعره بعدم الوقوف في هذا المكان لأنه ممنوع. مازال واقفاً، لم يعبأ بتوجيه الرجل له. يأتيه مرة أخرى. وينذره إذا لم يتحرك فوراً سوف يتم مصادرة حاجياته.. أدرك أنه لا جدوى من الوقوف. دفعها إلى الأمام. الشمس تلفح جبهته. وصلعة رأسه التي تساقط منها الشعر، مشى

بين الأزقة محاولاً بيع ما يمكن لتوفير متطلبات المنزل والأولاد.

استطاع البيع بثلاثمائة ريال، حتى وإن كان البيع بخسارة. المهم توفير متطلبات البيت والأولاد.

اقترب من منزله، دلف الفناء.. طرق الباب، تسرع الزوجة تفتح له. نظر إليها بعيون ذابلة ووجه بائس. قالت له:

- لماذا عدت باكراً، وأين حاجيات المنزل؟

قال:

- لقد منعنا من البيع، وما استطعت بيعه لم يوفر سوى ثلاثمائة ريال.

مد يده إلى جيبه أخرج النقود، أعطاها زوجته.

قالت:

- ما نفع هذه؟! إنها لا تكفي ما نحتاج إليه والأولاد بحاجة إلى مصاريف للمدرسة.

قال:

- وما أصنع لك؟ ذلك ما قدرت عليه.

قالت له:

- يجب أن تبحث لك عن عمل غير هذا أنت قليل الحيلة ولا تحسن التصرف. انظر إلى جيراننا إلى أين وصلوا، لديهم بيوت وسيارات وأنت لا تقدر حتى على توفير متطلبات البيت.

قال:

- يا امرأة ابتعدي عن طريقي هذه اللحظة، "ولا تغلّقي ما نقص".

قالت:

- لن أبتعد.

ازدادت حدة التوتر بينهما. دفعها للخلف أرضاً.. قامت من فورها، لم ترد عليه. ذهبت لغرفتها، وبدأت بجمع ثيابها للذهاب لمنزل والدها. شخصت ببصرها إلى جدران الغرفة.

تسمرت عيناها في صورة أولادها المعلقة.. سألت نفسها وجلست: ماذا سيكون مصيرهم؟ لو أنها تركت المنزل! لا شك بأنهم سيتشردون. والدهم لن يستطيع القيام بما أقوم به!

اقترب زوجها من باب غرفتها، نظر إلى حقيبة ثيابها.. تفاجأ. أحس بخطورة الموقف. تقدم ناحيتها، قدم لها الاعتذار، وعدها بتدبير متطلبات المنزل.

ذهب لأحد أصدقائه، استلف منه بعض النقود. مر لسوق القات أخذ ما يلزمه منه. عاد لزوجته، جلسا معاً يتناولان أوراق القات.

أتى المساء الساعات المتأخرة تقترب، وهو في طارود منزله. كيف يدبر مصروفات الغد؟!

البير

الساعة الواحدة ظهراً، الشمس تلفح وجوه المارة كل يحاول أن يتقي لفحها.

الباصات متراصة تقل الناس، وكما هي كثيرة فهم أيضاً كثر.

امرأة في العقد الخامس، عليها بالطو أسود كاشفة الوجه، وعلى رأسها رداء أسود مهلهل، وابنها ذو الاثني عشرة ربيعاً، يمسك يدها. أطلت برأسها تجاه سائق الباص. سألته:

- البير؟

أجاب: نعم

قالت له:

- معي عشرون ريالاً. هل ستقلني معك؟

لم يعر كلامها، نظر إلى الخلف! أخبر الركاب بأن يجمعوا الحساب، ثم انطلق.

أتى بعده باص آخر. كررت نفس الطلب وكانت نفس الإجابة.

تقدم آخر، لم يكن قد امتلأ بعد. سألته:

- معي عشرون ريالاً. أركب !

قال:

- أركبي.

انطلق تجاه بير باشا.. وأخيراً وصل إلى محطة الوقوف، نزل جميع الركاب. كانت المرأة أخر من نزل! أقدامها تقتادها بخطىً بطيئة، وضعت يداها فوق رأسها محاولة اتقاء حرارة الشمس.

تساءلت مع نفسها؟ الشمس حارة والبيت ما يزال بعيداً. سأركب تاكسي للنشمة وبعدها سأمشي، حتى أصل للمنزل.

ابنها يمشي وراءها يتلفت يميناً وشمالاً، يخطو ببطء، سائق التاكسي ينادي:

- النشمة... باقي ثلاثة ركاب هيا بسرعة

توقفت أمام السائق!.. قالت له:

- معي مئتين ريال! هل أركب أنا وأبني؟

قال السائق:

- الاثنين بثلاث مائة ريال.

قال أحد الركاب:

- يا حَّجة هاتي أبنك بجانبنا. وكانوا يجلسون في الكرسي الخلفي. وأنتي أجلس في الخانة الوسط.

قال السائق:

- ولكن لا يوجد معها محرم. ولو كان معها محرم لأركبتها بمائتي ريال.

قال ابنها:

- بل سنركب أنا وأمي في الخلف ومائتين ريال.

نظر السائق شزراً وقال:

- أنت لا يوجد معك فم.

نظرت إليه المرأة:

- إني لن أسمح لأحد بإهانة ابني، وسأقاتل من أجله.

صمت السائق. ولم ينبس ببنت شفة.

الشمس تزداد حرارتها، وبقية الركاب على عجل من أمرهم يريدون الانطلاق.. المرأة مازالت متمسكة بالمبلغ التي حددته هي (مأتي ريال).

قال لها أحد الركاب:

- أنا سأدفع مائة ريال، وتقعدي مع أبنك.

قالت:

- إني ما أشتي أخسِّرك، أنت صاحب عيال.

ظل الجميع في حيرة من أمرهم، ومتعجلين يريدون الانطلاق، قال أحدهم من الخلف:

- طيب يا حَّجة خليٌ أبنك في الخانة محل الحقائب.

قالت:

- لا.. كيف أركب ابني محل الحقائب هذا لا يجوز.

صاح الركاب بالسائق وطلبوا منه الانطلاق.

قال السائق:

- كيف أمشي والتاكسي لم يمتلئ بعد؟.

قال أحدهم:

- ألا يا الله نحنا وهذي اليوم. يا حَّجة اركبي أنتي وابنك وادفعي المبلغ المطلوب.

قالت:

- لا أدفع إلا مئتين ريالاً.

أقبل راكبين وامتلأ التاكسي ثم انطلقوا، بقيت المرأة مع ابنها منتظرة تكسي آخر، فهي لن تزيد على مائتي ريال.. شرع الظل يزيح أشعة الشمس.. رقّ قلب أحد السائقين لها. عندما رآها مصرة على دفع مئتين ريال. أركبها وابنها في مقدمة التاكسي، ولم يأخذ منها فلساً واحداً.

المشيمة

سواد الليل وسكونه في ظلام الدنيا المنسية، هجع الناس في منازلهم بينما هي تتأوه يميناً ويساراً تعاني المخاض.

لا يوجد بجانبها سوى امرأة تخفف لها من وطأة الألم والزعيق.

وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت طفلة تخرج من رحم أمها..

تلقفتها المرأة.. قامت بغسلها بالماء الدافئ ولفّتها بخرق بالية، ولم تعر للأم اهتماماً ظناً منها أن الأمور تسير على ما يرام.

وظلت تهتم بالطفلة، تدفئها وتحاول إسكاتها عن البكاء.

فجأة تدفق الدم من رحم الأم، بدأ القلق والتوتر على المرأتين.. المشيمة لم تخرج من الرحم، بقيت المرأة في حيرة، أتسعف الأم للمستشفى وتترك الطفلة، أم تدعها تنزف؟!.

هرعت إلى البيوت المجاورة تنادي نساء الجيران، لعل هناك حلاً بأيديهن.

دخل بعضهن المنزل.. كان سيل من الدماء يتدفق من الأم.. أخذن ينظرن إليها بذهول، حاولن الإمساك بها، ربطن خصرها ولكن دون جدوى.

بدأت الأم بالتراخي ووجهها ممتقع، أقدامها باردة، فاضت روحها، لم يكن هناك أي مخرج أمام النساء، أخذت إحداهن الطفلة لتربيتها لعدم وجود عائل لها.

قمن بغسل الميتة.. وشرع الرجال بأخذ الجثة لدفنها.

الطفلة تتأوه بكاءً، لا أحد يدري أهو الجوع أم الحزن في باطنها، قد يكون من دون قصد أو دراية، وهذا سر لا يعلمه أحد سوى خالقها.

الحياة تدب في جسم الطفلة برضعها حليب الأبقار والأغنام، وتطوع بعض النساء برضاعتها، أصبح عمر الطفلة سنتين.. نظر إليها أبوها ورأى أنه أولى بتربيتها لأنه كان يشعر بالحرج لعدم وجودها عنده.

بدأ بتربيتها والعناية والاهتمام بها، إلا أنه كان يشعر في نفسه أن المنزل مازال ناقصاً، وأن حياته أصبحت شبه فارغة ينقصها شيء، إنها المرأة التي ستملأ حياة المنزل بالحب والحنان والدفء.

لكنها جاءت لتعامل الطفلة بقساوة، فكلما همّت الطفلة بعمل شيء قامت بضربها، وكلما حاولت الخروج للعب مع أطفال الجيران منعتها، وكلما

أوعزت بطلب شيء لتأكله منعته عنها، فهي لا تأكل إلا بإذن خالتها وفي الوقت التي تسمح لها.

الأب منشغل في عمله خارج المنزل، ولا يعلم بما يدور داخل المنزل، وفي أثناء عودته يجد الطفلة قد نامت، أو لم تتجرأ بإخباره.

زوجته لم تشعره بأنها تقسو على الطفلة.. الطفلة سئمت العيش في المنزل مع زوجة أبيها.

سواد الليل وسكونه يزيد من حزنها، ولتطابق الليل مع الحزن فضلت أن ترمي نفسها في كنفه المظلم لعله يكون الحضن الدافئ الذي يريحها من المعاناة.

تسللت خارج المنزل وسط الظلام، وهي لا تعلم إلى أين تتجه، رغم أنها تعاني المرض.

تقدمت بخطىً بطيئة دون هدف، وكانت تترنّح.. صوتها يعلو من البكاء.

الناس هامدون في منازلهم، ولم يستطع أحد تمييز الصوت أهو صوت الرياح أم الذئاب والكلاب أو صوت الطفلة؟.

اقتربت من إحدى الدور، سمعت امرأة صوتها، هرعت إليها وضمتها لصدرها، اقتادتها للبيت.

الطفلة ترتعد من البرد القارس، والحمى فوق الدرجة المعتادة.

أدفأتها بالبطانية، ولكنها مازالت ترتعد من البرد والإسهال والقيء، قامت المرأة بإشعال النار، وضعت الطفلة بجانبها لتدفئتها، المرض يفتك بها.

سألت الطفلة أين والدك؟

قالت: لا .. ولم تتحدث بكلمة.

تعرفت المرأة على الطفلة وعلى والدها، أرسلت على الفور تستدعي أباها ليأخذ ابنته ويحاول إسعافها إلا أن القدر كان سريعاً، وما إن وصل لأخذ ابنته كانت قد فارقت الحياة.

القضبان

في العقد الرابع من العمر، متوسط القامة، ذو جسم رشيق متناسق، عريض المنكبين والصدر، مما يوحي بالقدرة على تحمل أقصى درجات التعب.

يداه مقيدتان بسلاسل حديدية تمتد إلى رجليه، يقتاده أحد الجند وحوله العديد من الجنود الذين يصوبون بنادقهم نحوه.

أقدامه تقتاده، وهو مطأطئ الرأس، يشعر بالخجل أمام أصدقائه الذين اقتيدوا وراءه عقب محاصرتهم في المعركة.

أخذ يتساءل مع نفسه.. ما الذي حدا بي إلى هذا الموقف؟ ولماذا سلمت نفسي وأصحابي؟ لماذا لم نقاتل حتى الموت؟

راودته فكرة أخرى تطيب من خاطره. إنه القدر الذي جعلك تصول وتجول في ميدان المعارك، وتجندل بكل شجاعة أعتى الفرسان، وأثبت للآخرين أنك جدير بالمسؤولية.

مازالت الأفكار تعصر رأسه، قلبه يحن ويتوجع لمصير بلده المحتل، ومن هول ما حدث لها من الغزاة من قتل وتشريد وحرق للمنازل والمزارع، وذبح المواشي.

جنود مدججون ببنادقهم وسيوفهم يقتادونه نحو مكان مظلم. ليس بأشد ظلمة مما يشعر به في نفسه.

حراس القلعة ينظرون إليه بذهول، يتحدثون، هذا هو البطل الذي قاومنا طيلة خمسة عشر عاماً بالكر والفر.. أنظروا إليه إنه يشعر بمرارة الهزيمة والأسر.

فتح الباب.. دلقوا به إلى الداخل.

تبعه أصدقاؤه، أجلسوهم جميعاً في زنزانة واحدة.

كانت أعدادهم تفوق بكثير المكان الذي سجنوا فيه.

سواد الليل وسكونه في ظلام الدنيا المنسية لم ينس القائد أسرته التي وقعت في الأسر.

وقبل تفكيره بمصير أسرته يحزن كثيراً لقواده، الذي استسلموا معه واقتيدوا إلى السجن.

إنه لا يستطيع حتى النظر إليهم.

أخذ يدق رأسه على جدران الزنزانة، يزعق بأعلى صوته:

- لقد خدعوني وجعلوني أستسلم، رفضوا شروطي، سلبوني أرضي وأهلي وحريتي، يا إلهي، ما الذي يجري؟ كيف حدث لي هذا؟

يقف أحد أصدقائه، يحاول طمأنته:

- اهدأ يا أخي، إنه القدر الذي أوصلنا إلى ما نحن عليه، ولابد من بعد العسر يسر، ومن بعد الكرب فرج.

تحدث هو بصوت يوحي بالغضب والمرارة:

- لابد من نزع هذه القيود.. يجب أن تحدثوا فوضى حتى ينزعوا عنا القيود. دقوا عليها، ارفعوا أصواتكم للحراس.

البلبلة تزداد داخل الزنزانة، سمع صليل السلاسل، هرع الحراس تجاههم، أخبروهم إذا لم يوقفوا هذه الضجة فسوف يزداد عقابهم وتعذيبهم أكثر، وقد يعزل قائدهم عنهم في زنزانة انفرادية، وأن مطلبهم هذا سوف يرفع للقائد الأعلى لينظر فيه.

بدأوا يهدؤون.. ليس خوفاً على أنفسهم من التعذيب وإنما خوفاً من أن يعزل قائدهم لوحده.

خارت قوى معظمهم وناموا، بينما النوم شرد من قائدهم، أخذ يتلو آيات القرآن ويكثر من الصلوات كي تخفف من معاناته.

ظل على هذا الحال مدة طويلة، حتى صدر الأمر بفك قيوده مع أصدقائه.

سئم الجميع البقاء خلف القضبان، وازداد خوفهم على قائدهم من الانهيار، فرأوا أنه لابد من الخلاص، والخروج للدفاع عن وطنهم.

تشاوروا مع قائدهم، وكانت فكرة سديدة بأن ينقضوا على الحراس.

أمسك أحدهم بأمعائه مدَّعياً الإعياء الشديد، فتح ثلاثة من الحراس الباب، انقض عليهم كل من في الزنزانة، بمن فيهم القائد وطرحوهم أرضاً.

استولوا على سلاحهم، أطلقت أعيرة نارية من الجانبين، سقط شهداء منهم، ولكن إصرارهم على نيل الحرية يرفضون التراجع.

كان هدفهم الخروج لتخليص أبناء بلدهم من المستعمر.

علت هتافاتهم: تحيا الجزائر، تحيا الجزائر.

القلق

الساعة تشير إلى الرابعة مساءً، سيارة فارهة رمادية اللون تقف أمام عيادة الطب النفسي.

دلفت منها امرأة، تلبس برقعاً تصل حافته تحت عينيها البراقتان، حولها بشرة بيضاء جذابة.

تقدمت بخطوات سريعة، وكأن شيء ما يطاردها.

كانت تشعر في ذاتها بأن الكل يراقبها وخوفاً من أن يراها أحد معارفها لدخولها عيادة الطب النفسي.

صعدت درجات السلم، وصلت إلى غرفة الطبيب، طرقت الباب ثم دخلت. استقبلها الطبيب بترحاب وسمح لها بالجلوس.. أخذت نفساً عميقاً ثم اتكأت على الكرسي، تفرست في وجه الطبيب، سألها بهدوء:

- من ماذا تعانين؟

قالت:

- أعاني من قلق دائم، قلة النوم، وفقدان الشهية.

- هل حصل لك موقف ما؟ أو مشكلة معينة؟

فبدأت بالحديث قائلةً:

- الحقيقة كنت أتمشى مع إحدى صديقاتي في أحد الشوارع، وصادف أن توقفت سيارة بجانبنا كان سائقها يقرب لصديقتي، أصر على

إيصالنا إلى المنزل، رغم محاولتي عدم الركوب، صعدنا معاً وفجأة بدأ إيصال صديقتي إلى منزلها، ومن ثم انطلق بالسيارة وأصر على إيصالي لمنزلي، لم يدر بيني وبينه أي حديث سوى أني كنت أشير إليه بالأماكن التي سيخطو منها للوصول إلى منزلي. وأخيراً وصلنا بعد أن تصببت عرقاً حيث كثرت الأفكار والوساوس في رأسي، ماذا لو رآني معه أحد أقاربي أو زوجي، وبالفعل حدث ما كنت أخشاه! حيث توقفت السيارة بجانب المنزل. دلفت منها بعد أن شكرت سائقها، إلا أنني لمحت زوجي مقبلاً من الطرف الآخر، أو قد لمحني وأنا أنزل من السيارة وأدخل باب المنزل.. ارتعدت فرائصي، زاد الخوف والقلق، واتجهت مسرعة للداخل.. توجهت نحو غرفتي، غيرت ملابسي وعدت إلى المطبخ حيث سمعت خطوات زوجي متجهة نحوي..

قابلته وتناولت ما في يده من خضروات وفواكه، لم يتحدث كلانا مع الآخر.. كنت أتفرس في وجهه وكانت علامة الغضب بادية عليه.. لم يحاول استجوابي أو حتى رصوته فوقي أو معاتبتي!. كنت على استعداد لأتقبل منه أي معاتبه أو أي شتيمة، المهم أن يواجهني ويصارحني بأني اقترفت ذنباً وأنا مستعدة للدفاع عن نفسي، وبأني بريئة على عكس ما تصوره هو.. ولعل صديقتي وقريبها لم يكونا يقصدا إيقاعي في مشكلة، وإنما عملا معروفاً معي، وأنا على ثقة من صديقتي، وكم مرة أوصلنا زوجي أنا وصديقتي لمنزلها. لكن زوجي ساوره الشك بي كونه لا يعرف السيارة أو سائقها، ولعدم وجود امرأة أخرى بجانبي.. كانت العلاقة بيني وبينه علاقة حب ومودة، لم أعرف يوماً أنه شتمني أو رفض لي طلباً، إلا أنه في معظم الأوقات مشغولاً عني لكثرة

الأعمال لديه، ولأن عمله يأخذ منه أغلب وقته، لم أستطع مواجهته والدخول معه بنقاش، سوى أنه كان متجهم مني عابس الوجه، وجوده أو عدمه سواء، مما زاد القلق وتأنيب الضمير الذي لم أعرف له سبباً!.

صمتت وطأطأت رأسها.

حدَّق الطبيب في وجهها ثم ابتسم وقال لها:

- مشكلتك سهلة وحلها بيديك.

أدارت رأسها نحوه بتلهف:

- كيف يا دكتور؟

- عليك مقابلة صديقتك ومواجهتها بالمشكلة وأنها وقريبها قد أوقعا بك مع زوجك وأوصلاكما إلى هذه الحالة، ومن ثم إخبار صديقتك بمواجهة زوجك بما حدث، لعله يتفهم الأمور، وكونه يحبك ويكن لك المودة والاحترام سيقدِّر موقفك، وتعود المياه إلى مجاريها.

الأرض والسلاح

الشفق لاح بضوئه الخافت وابتسامته الجميلة مبشراً بيوم جميل، تستقبله الأرض الخضراء الممتلئة بالزرع وبالأشجار الخضراء الباسقة.

بينما هو وكالعادة يقوم أثناء شروق الشمس، يتناول قطع الخمير المقلية بالزيت ويرتشف الشاي، يقوم بلبس عمامته التي يطويها فوق رأسه، ثم يأخذ معوله ويتكل في الذهاب لحرث الأرض مع الفلاحين مقابل أجرٍ زهيد.

الأرض التي يملكها قليلة جداً لا تكفي لسد حاجته مع زوجته وأولاده الستة.

في ذلك اليوم كان يتناول رغيف الخبز بنهم شديد والارتباك بادٍ على وجهه، وكأنه يخفي على أسرته شيء ما.

خرج من منزله، بدأ ينظر للزرع والثمار، أخذ يتحسر على نفسه وما فعل به الزمن.

قال:

- شقاء كل يوم مع الناس، الأجر قليل، لم أستطع شراء أرض أو بناء منزل لأبنائي. فهذا المنزل المهلهل يعلم الله متى سينهار علينا، أرض لا تفي بالغرض، بينما أخي الأكبر يتمتع بأرض واسعة، فقد أخذ الجزء الأكبر منها، وترك لي الباقي، أخذ الأرض الخصبة وترك الجدباء. أولاده يتعلمون في أحسن المدارس والجامعات، وأولادي لم أستطع تدريس أحد منهم في مدرسة القرية. هذا ليس عدلاً، يجب أن يكون

هناك عدل ومساواة، سوف يتحقق في الوقت القريب.

أخذ يخطو بسرعة مطأطئ الرأس، لا يرى أمامه سوى شبح أخيه يخاطبه بالقسمة العادلة للأرض.

كان يعلم أن أخاه سبقه للوادي الممتلئ بالفاكهة، مشى مسافة طويلة.. العرق يتصبب من وجه، راودته أفكاره، كيف تحمل مسدساً وأنت لم تتشاجر مع أحد منذ فترة طويلة؟ الجميع يعلم أنك رجل مسالم، لم تؤذِ أحداً قط.. لكن أنا أعلم بأن أخي شرس في تعامله معي، على عكس الآخرين! وبحملي لسلاحي سأثبت له وللآخرين بأني رجل قوي وشجاع، وأن باستطاعتي الدفاع عن نفسي. ولكن هل سأقتله؟ كلا! إنما سأشهر السلاح للتهديد فقط.

أخيراً وصل لأخيه، كان يروي المزروعات بالماء، رفع رأسه فخاطبه قائلاً:

- ما الذي حدا بك إلي في هذا الوقت وأنت لم تكلف نفسك لزيارتي ولو مرة في الأسبوع؟!

أجابه بصوت مذعن:

- إنك تعلم بأني في شغل دائم مع الرعية وأصل إلى المنزل قرب المغرب، أضطجع في الفراش ولا أبدي ساكناً إلا في الصباح الباكر، ولست مثلك أعيش في النعيم والثراء.

- أي نعيم هذا الذي تتحدث عنه، كلنا في القرية متساوون في العيش!

- لا.. أنت أكثر غنىً منا، إنك تمتلك أرضاً أكثر مني، فقد سيطرت على الجزء الأكبر من ميراث والدي، وتركت لي الأرض التي لا تصلح للزراعة.

- ما الذي أسمعه منك يا عبدالله.! إنك أول مرة تخاطبني بهذه اللهجة.

- نعم يا أحمد، حان وقت الحساب ومن حقي امتلاك أرض مثلك.

ازدادت حدة التوتر عند أحمد، انتفخت أوداجه، برقت عيناه حتى ظهر منها الشرر، ثم قال:

- أغرب عن وجهي، وأمسك بعصاته ملوحاً بها في الهواء.

- يا عبدالله: اذهب لحال سبيلك وإلا أوسعتك ضرباً بهذه.

أجاب:

- لن أبرح مكاني إلا وقد تنازلت عن أرض المديهف.

هرع أحمد تجاهه: تريد المديهف يا قليل الأدب.

أخرج عبدالله مسدسه من حزامه الملفوف على خصره، ثم لوح به تجاه أخيه، ضغط على الزناد، انطلقت منه رصاصة استقرت في صدر أخيه.

هوى أرضاً دون حراك، لم يدرك عبدالله الموقف، لا يعلم ما الذي حدث بهذه السرعة، كان ينظر لأخيه ملقى على وجهه.

أفلت مسدسه، انطلق هارباً لا يعلم إلى أين يتجه، سوى أنه كان يركض بسرعة فائقة، ووراءه شخصان يريدان الإمساك به.

لم يتوقف عن الجري وهم لم يتوقفوا عن ملاحقته، كان يركض دون هدف أو مقصد.

وصل إلى سفح الجبل منهكاً، خطواته قللت من الجري، أنفاسه تلهث من شدة التعب.. هوى على رأسه حجر أسقطه أحد الملاحقين له، سالت الدماء منه وسقط مغشياً عليه.

الشك

طويل القامة ببشرته السمراء، ذو وجه غير ممتلئ بلحيته الكثة السوداء، رغم تعديه التاسعة والأربعين عام.

يضع حول رأسه عمامة مطوية وقميصاً مهلهلاً وفوطة مطوية فوق القميص إلى أسفل ركبتيه.

الحياة بالنسبة له أمر طبيعي غير مكترث بها.. يراه الآخرون مختلفاً عنهم أو مختلاً عقلياً، رغم

محاولة والده الجادة في تعليمه القرآن الكريم لدى فقيه القرية، فكلما أرغمه والده للذهاب للقراءة تمرد عليه.

وذات يوم أمسك أبوه بتلابابه، وأجبره في الدخول على الفقيه، إلا أنه عجز عن تعليمه ولو حتى كلمة واحدة.

وما كان من الفقيه إلا أن أمسك بلوح الخشب وضربه على عقبيه، انتهز هو الفرصة، انتزع اللوح من يد معلمه وضربه على قدميه.

كانت فرصة للهرب وعدم العودة ثانية، رغم اعتذار الفقيه له، ومحاولة والده بالعودة.

كانت تلك الحادثة محل إعجاب أهالي القرية.

بدأوا يرون أنه قادر على العمل بجدية ونشاط، كانوا ينتفعون به دون أجر، حتى النساء ينتفعن به، كونه لم يكن يعبأ بهن.

كل ما يهمه تقديم الخدمات مقابل لقمة عيشه، أو تقديم الحلوى له.. بدأ والده يشعر بالتعب لتقدم سنه،

وأنه غير قادر حتى على صعود الأشجار لقطف أعلافها للأغنام والأبقار، فرأى أنه لابد من الانتفاع من ابنه.

في صباح أحد الأيام اصطحبه وناوله المعول، أمره بأن يصعد فوق الشجرة، بدأ بالصعود وقطع الأعشاب، وعندما تعب اتكأ بظهره على أحد أعمدة الشجرة، إلا أنها انزلقت من ورائه، فأفلت المعول وتشبث بعمود آخر وظل معلقاً.

قال له والده: انزل للعمود الذي تحت قدميك، وما كان منه إلا أن أفلت يديه ووقع أرضاً، ومن حسن حظه أنه وقع فوق الحشائش، فظل يتألم ويمسك بظهر من شدة الألم.

والده تارة يريد الضحك، وتارة يتألم على ابنه، رأى والده أنه لا فائدة من منفعة ابنه له، بينما كان الأهالي يرون أنه قادر على العمل وبالأخص الأعمال الخفيفة التي لا تتطلب جهداً ذهنياً.

كان يعمل مقابل أجر زهيد إما بحرث الأرض وريها أو نقل الحب للطاحون أو المراسلات السهلة بين قرية وأخرى، فهو يتولى المهام في أي وقت يذهب في الظلام الحالك، لا يستخدم كشافاً للإضاءة، بل يمشي بين الأحجار يصعد الجبال لا يخاف الحيوانات أو غيرها.

لم يعبأ بشيء، يرى أن الحياة ليس فيها مخاطر، وكل من يقابله يتعامل معه كصديق.

والده لم يتعمر كثيراً، فقد وافاه الأجل مبكراً.

رأت أمه أن لا فائدة من مكوث ابنها في القرية، وأن أصلح مكان له الذهاب إلى المدينة للعمل فيها.

هاجر إلى المدينة، وهناك تعرف على بعض أهالي قريته الذين بدورهم أوجدوا له عملاً، فبدأ يعمل بهمة ونشاط ويتقاضى أجراً مرتفعاً، ومع ذلك كان كلما تسلم أجره ذهب لشراء الأطعمة الشهية والحلويات واللحوم ولم يستطع توفير المال أو إعطاء أمه شيئاً منها.

في إحدى الأيام انتابه المرض، فذهب إلى المستشفى، وطُلبَ منه عمل فحوصات، وكانت نتيجة ذلك وجود مرض في أمعائه فقرر له الطبيب العلاج.. ذهب للصيدلي وناوله الروشتة، ثم قال للصيدلي:

- أريد علاجاً من أفضل ما عندك.

اتجه الصيدلي إلى الداخل وأخرج أحد الكراتين، أخرج منها العلاج وناوله.

بدأ الشك يساوره.. كيف ناوله الصيدلي الدواء من الكرتون، ولم يناوله من الرف الذي أمامه.. إذاً الدواء الذي في الكرتون لن يشفيني من المرض.

أخذ الدواء من الصيدلي ورماه أرضاً، ثم عاد إلى المستشفى مرة أخرى، وطلب إعادة الفحص، كانت نفس النتائج السابقة.

ذهب إلى صيدلي آخر، أعطاه العلاج من الرف، فاطمأن لذلك، ثم عاد إلى منزله وتناول العلاج دفعةً واحدة.

كان النعاس ينتابه باستمرار، شعر بعدها بالكسل وعدم الرغبة في العمل وبدأ يشك بأنه لا ينام، وأن ما يتناوله من شاي أو قهوة يسهره، وأن الأيام تمر وهو لا ينام.

عاد إلى قريته كسولاً لا يحب العمل وفي نوم مستمر ومازال يشك بأنه لا ينام.

صدر للمؤلف

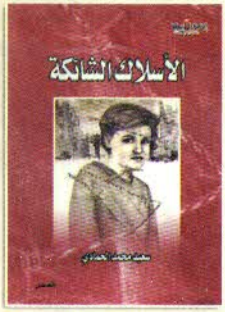

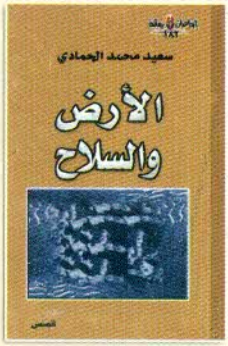

- من مواليد 1967 محافظة تعز بني حماد.
- المؤهل الدراسي: بكالوريوس آداب علم الاجتماع عام 1997م.
- خريج جامعة صنعاء كلية الآداب.

نشرت له العديد من القصص في الصحف والمجلات اليمنية.

صدر له :

مجموعة قصصية، الاسلاك الشائكة عام 2003م عن مركز عبادي للدراسا ت والنشر

مركز عبادي للدراسات والنشر
ص.ب: 662 - صنعاء
ت: 219618 / فاكس: 219619
الجمهورية اليمنية